

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح رياض الصالحين

حديث عائشة رضي الله عنها-: "يغزو جيش الكعبة" وحديث: "لا هجرة بعد الفتح"

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي باب الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية أورد المصنف رحمه الله - حديث أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم-: ((يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا بببداء من الأرض يُخسف بأولهم، وآخرهم، قالت: قلت يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم))^(١). متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

قوله: عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها-، مضى في بعض المناسبات أن عائشة رضي الله تعالى عنها- لم يكن لها ولد، وإنما هذه الكنية كانت بابن أختها أسماء كُنيت بعبد الله ابن أختها، وهو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما- ونكرنا هناك أنه لا بأس أن يكنى الإنسان بغير ولده، وقد يكنى بمن لا وجود له أصلاً، يعني: هذه عائشة رضي الله عنها- كُنيت بابن أختها بعبد الله بن الزبير رضي الله عنه-. عمر أبو حفص ليس له ولد يقال له حفص، ولم تكن هذه الكنية باعتبار معين يقال له حفص، وإنما حفص من أسماء الأسد.

وعلى كل حال حتى لو كان الإنسان له أولاد فيمكن أن يكنى بغير ولده، الأمر في هذا واسع.

تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم-: ((يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا بببداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم)).

في حصار ابن الزبير رضي الله تعالى عنه- لما جاء جيش من الشام -كما هو معروف- حُدِّث بهذا الحديث، حدثت به أسماء رضي الله تعالى عنها-، وبعض من روى عنها هذا الحديث كان يقسم أن ذلك لا يراد به هذا الجيش الذي جاء من الشام، مع أنه جاء في بعض الروايات ما يدل على أن هذا الجيش يتوجه إلى رجل من قريش يعتصم بهذا البيت، ففهم بعضهم أن المراد به ابن الزبير رضي الله عنه- وأن هذا الجيش هو الجيش الذي جاء من الشام، ثم انكشف الأمر بعد ذلك إلى أن هذا الجيش غير مراد؛ لأنه لم يخسف بهم، وهذا فيه فائدة: وهي ترك التسرع بتنزيل هذه النصوص على وقائع قد نعيشها ونراها ونشاهدها، ثم يكون ذلك التنزيل واقعا على غير محله.

((يغزو جيش الكعبة)) الكعبة قيل لها كعبة باعتبار أنها مكعبة، والعرب تقول لكل مربع كعبة.

((فإذا كانوا بببداء من الأرض)) الببداء: الأرض المستوية يقال لها: ببداء، هل هذه الببداء هي الببداء المعروفة بطريق مكة من المدينة، أو أنها غير ذلك؟، الله تعالى أعلم، هنا نكرة.

^١- أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق (٦٥/٣)، رقم: (٢١١٨).

الله سيسأل الإنسان في القبر عن ثلاث مسائل، من ربك؟، وما دينك؟، ومن هذا الرجل الذي بعث فيكم؟، ولا حاجة للإنسان أن يركب المراكب الصعبة، ثم بعد ذلك ينقح أموراً لا يحسنها، وقد يبوء ببعض أحكامها، فيترك هذا لمن كان راسخاً في العلم.

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها- قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم-: **((لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا))**^(٣) متفق عليه.

قوله صلى الله عليه وسلم-: **((لا هجرة بعد الفتح))** نحن عرفنا في بعض المناسبات أن الهجرة هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقلنا إن هذا ليس بالضرورة، وإنما ينتقل من البلد التي لا يأمن فيها، ولا يتمكن من إقامة دينه إلى بلد يأمن فيها، ويتمكن من إقامة دينه، ليصدق هذا على الهجرة إلى الحبشة مثلاً، فالصحابه رضي الله عنهم- لما هاجروا إلى الحبشة كانت هجرة شرعية، وسميت بذلك ولم تكن الحبشة بلد إسلام.

هنا قول النبي صلى الله عليه وسلم-: **((لا هجرة بعد الفتح))** يحتمل أن يحمل ذلك على العموم؛ لأن "هجرة" هنا نكرة في سياق النفي فتعم، يعني: أن ذلك ينفي الهجرة التي هي الانتقال بالبدن، أنه لا حكم لذلك بعد فتح مكة، انتفت الهجرة بالكلية، لا هجرة.

ويحتمل أن يكون المراد لا هجرة من مكة، فإن مكة صارت بلد إسلام، فلا هجرة بعد فتحها، انتهت، كان الناس يهاجرون من مكة، فلما فتحها النبي صلى الله عليه وسلم- انتفت الهجرة، وهذا معنى قريب. وهناك معنى ثالث يحتمل وهو: أن المقصود لا هجرة بعد الفتح، يعني: كالهجرة الأولى التي كانت قبل فتح مكة، حيث كانت الحاجة والشدة والأذى، فكانت النفقات تتفاوت قبل فتح مكة، وكذلك الهجرة، فيكون النفي هنا ليس للذات وإنما يكون النفي للكمال، ولكن هذا فيه ما فيه.

فالأقرب - والله أعلم - أنه لا هجرة من مكة إلى غيرها، **((ولكن جهاد ونية))** يعني: الجهاد باق، ماضٍ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم- إلى يوم القيامة.

((ونية)) أن ينوي الإنسان الجهاد، وينوي الخير، وينوي نصر الدين، فيكون قصده إعزاز كلمة الله -تبارك وتعالى-، وكذلك أيضاً أن يهاجر بقلبه إلى الله ورسوله، بمعنى: أنه يفارق مألوفات النفس وهواها، فالهجرة هجرتان: هجرة بالأبدان، وهجرة بالقلوب، فهذه الهجرة التي بالقلوب هي باقية، وقد يهاجر المرء ببدنه، ولكن قلبه لم يهاجر معه.

((وإذا استنفرتم فانفروا)) يعني: إذا دعيتم إلى الجهاد واستنفرتم لنصر الدين وإعزازه لأي أمر كان فأجيبوا من دعاكم وانفروا في سبيل الله -تبارك وتعالى-.

النووي رحمه الله- هنا فسر الهجرة، قال: من مكة؛ لأنها صارت دار إسلام، وقال الخطابي رحمه الله-: كانت الهجرة أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم- في أول الإسلام مطلوبة، ثم افترضت لما هاجر إلى

^٣- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير (١٥/٤)، رقم: (٢٧٨٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، وبينان معنى لا هجرة بعد الفتح (١٤٨٨/٣)، رقم: (١٨٦٤).

المدينة، يعني: إلى حضرته -صلى الله عليه وسلم- للقتال معه ولتعلّم شرائع الدين، وهذا جاء فيه آيات معروفة، فلما فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل سقطت الهجرة الواجبة، وبقي الاستحباب، هذا كلام الخطابي.

والله تعالى أعلم.

نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يفقهنا وإياكم في الدين، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين.